كتب

يُحلّل الباحثون المشاركون في كتاب «الاحتفال بالمَولد النبوي»، الصادر بالفرنسية حديثاً، ظاهرةً دينية يختلط فيها المقدّس بالدنيوي والديني بالثقافي، ذلك أنّ المَولد النبوي وما فيه من احتفالات يستبطن تعبيراً جماعيّاً عن الهوية العربية الإسلامية

الذاكرة الدينية والشعائر في عالم متحوّل

الاحتفال بالمَولد النبوي

نجم الدين خلف الله

مع إطلالة شهر ربيع الأول من كلّ سنة هجرية، تحتدُّ النقاشات حول المشروعية الدينية للاحتفال بالمولد النبوي بين مدافعين يَرون فيه مناسبة لاستذكار الشمائل المحمّدية ومعارضين يعتبرونه «بدعة». وبين الفريقين، يزدهر خطابٌ فقهي ذو طبيعة جدلية حول وجاهة هذا العمل ويستنفر أقيسةً ونصوصًا بعضها نقليّ وجلُّها عقليّ. على صعيد الواقع المعيش، تُسجّل المجتمعات العربية الإسلامية، رغم اختلاف طبيعتها وأنظمتها، العديد من مظاهر الاحتفال الشعبية والرسمية التي تُقام في دول عديدة مثل مصر واليمن والمغرب، حيث يعدّ يوم الثاني عشر من ربيع الأول عطلة رسمية. وفي المقابل، ثمّة دول أخرى، أشدّ محافظة، لا تُولي أيّ اهتمام رسمي بهذا اليوم. نحو هذه التناقضات التي تسِمُ الخطاب والواقع، تَوجّه قرابة خمسة عشر باحثًا فرنسيًّا وعربيًا مُقيمين في فرنسا، بغاية استنطاق الممارسات والتمثّلات العالِمة والشعبيّة التي تتّصل بهذه المناسبة وذلك في كتاب جماعي تحت عنوان «الاحتفال بالمَولِد النبوي: الخطابات والممارسات والتصوّرات»، صدر مؤخّرًا عن «معهد الدراسات حول العالَم العربي والإسلامي» في فرنسا (IREMAM).

يتضمّن هذا الكتاب مقدّمة كتبها المُشرفان على هذا المشروع، الذي استغرق إعْدادُه قرابة السنتين، وهُما: فريد بوشيبة ومريم العقيلي اللذان استعرضا الرهانات المعرفية والمنهجية للدراسات التي سبق أن تناولت هذه الظاهرة مع التذكير بأهم الكتب والمقالات وتوجّهاتها في تحليل هذا الموضوع المتجدّد الذي كان قد تناوله مختصّون في تفكيك مظاهر الاحتفال في المجتمعات العربية والإسلاميّة.

توالت بعد ذلك فصول الكتاب التسعة وتوزّعت إلى ثلاثة أقسام كبرى: فالقسم الأول الموسوم: «النقاش الفقهي المذهبي عبر التاريخ» تضمن بدوره ثلاث دراسات، أعدّ الأولى أحمد ولد داي وتطرّق فيها إلى الاحتفال بالمَولد في الغرب الإسلامي إبّان العصور الوسطى، على ضوء الفتاوى الفقهية التي جمعها الونشريسي (1430 - 1509). وتناول كاتب هذه السطور شرعية الاحتفال لدى المُفسّر التونسي محمد الطاهر بن عاشور (1879 - 1973). وفي المبحث الثالث، تناول مهدي بالرياح قضية الغموض والحيرة حول الاحتفال بالمولد في كتابات ابن تيمية وتوظيفها في المناقشات الدينية المعاصرة حول هذه القضية نفسها.

وهكذا، كان هذا القسم استنطاقًا للمواقف الفقهية التي ساعدت على التشريع لهذا الاحتفال أو بالعكس سعت إلى «تبديعه» مع استعراض نظام البرهنة التي لجأ إليها هؤلاء العلماء ضمن سياقاتهم السياسية والثقافية وانتماءاتهم المذهبيّة.

أمّا القسم الثاني فيحمل عنوان: «مقاربات اجتماعيّة أنثروبولوجيّة»، وفيه أبحاث حول البُعد الاجتماعي لهذه الاحتفالات حيث عالج عز الدين كنزي أشكال التنظيم المجتمعي والتقاليد القروية المتعلّقة بالإحتفال بالمولد النبوي لدى المُرابطين بالشُّرفة (منطقة القبائل الجزائرية). نفس السؤال طرحه الباحث السنغالي ماكوبا ديوب الذي حلّل كيفية احتفال الشيعة والطقوس الممارَسة خلال المولد في غامو (السنغال). وأخيرًا حلّل صادق سلام قصيدة للشيخ ابن باديس عن المَولد النبوي صاغها سنة 1937 مُثيرًا بذلك جدل الإصلاح والفكر الوهابي في الجزائر إبّان الحقبة الاستعماريّة.

وهكذا ركز هذا القسم على الممارسات الشعبية الواقعية للاحتفال بكل أبعادها النفسية والجماعية، وكيف أصبحت هذه المناسبة موسمًا لتغذية الشعور بالانتماء وتقوية الإحساس بوجود رمز جامع يعين على تجاوز الأزمات. ممّا يؤكّد أنّ الاحتفال، أو الامتناع عنه، كلاهما، استجابة لضغوط خارجيّة وشكلٌ من أشكال التنفيس عن الصعوبات التي تواجه العرب والمسلمين في معيشهم اليومي؛ فهو تكسير للرتابة بآلية مزدوجة: فمن جهة، يستعيدون المثل الروحي الأعلى الذي يُتيح لهم الانعتاق من قيود اللحظة وكثافة المادة الخانقة. ومن جهة ثانية، هو زمنُ ابتهاج نفسي وشعبي يفيض بمشاعر الغبطة التي تُخفّف من كَرّ الليالي والأيام وتتاليها الثقيل.

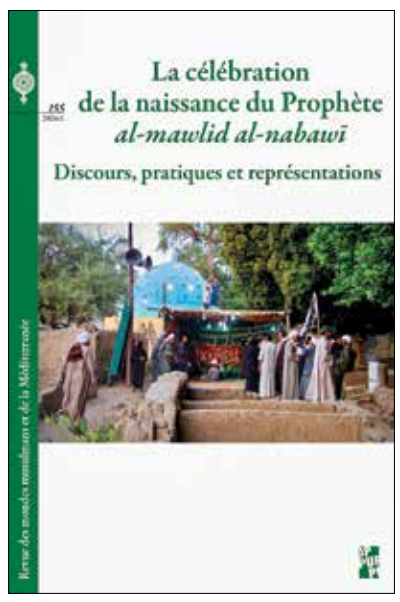

اهتمّ القسم الأخير بالنّتاج الأدبي والفنّي المتّصل بهذه الاحتفالات وتضمّن بدوره ثلاثة مقالات: الأول بقلم أريانا توليبي التي خصّصت بحثها لتفاني النساء في حب النّبي من خلال البناء الأدبي لصيغة غير رسمية للمَولد النّبوي تجلّت في «كتاب الأنوار» لأبي الحسن البكري. وركّز أنتونيو كيكسونيلي على الجنس الفنّي للمَولد كما ارتسم في منتصف القرن الثامن عشر للميلاد في مَولد البَرَزنجي، ليكون هذا القسم بحثًا في الخصائص الأسلوبية والفنّية لنصوص «المولديات» التي باتت تمثّل جنسًا فنيًا على جدة، يتميّز عن السيرة النبويّة بمعناها التاريخي الخطّي وبتركيزها على الأحداث المشكّلة لنسيجها. كما يختلف جذريًا عن كُتب الحديث والشمائل والمغازي من خلال المُراوَحة بين الشعر والنثر والتزام السجع في رَسْم معالم الخصائص النبوية مع إثبات إرهاصات الولادة وما حصل فيها من مُعجزات وخوارق رغم أن بعض علماء الحديث قد يشكّك فيها. ومن بين هذه المولديات نذكر نصوص المناوي وابن الدَّيْبَع والبكري والرياحي، وغيرها كثير صِيغت بالعربية والفارسية والتركية.

وهكذا، يهدي مجموع هذه الدراسات تحليلًا علميًا لظاهرة دينية يختلط فيها المقدّس بالدنيوي والديني بالثقافي، ذلك أن مناسبة المولد النبوي وما يجري خلالها من احتفالات شعبية ورسمية ثم ما يدور حولها من خطابات ومناقشات هي فرصة للتعبير الجماعي عن باطن الهوية العربية-الإسلامية في بحثها عن «عيد» يكمل العيدَيْن الشرعيَّين (الفطر والأضحى) أو يعمّم آثارهما عبر الالتفاف حول شخصية جامعة، وكسر رتابة الحياة اليومية وما فيها من ضغوط وتوتّرات، لا سيّما في المناطق الفقيرة التي تُعاني غلاء المعيشة واضطهاد الأنظمة السياسية. ولذلك تُصبح أيضاً فرصة للتكامل الاقتصادي والتضامن بين الفئات الاجتماعية. كما توفر فرصة ثمينة تستغلها السلطات السياسية لتجديد شرعيتها وإظهار نفسها بمظهر «حامي الدين» في ضربة تسحب الشرعية من أحزاب الإسلام السياسي.

وليست هذه المناقشات ماضيًا انقضى، بل هي خطابٌ حيٌّ ومؤثّر في الوقت الراهن، سواء كان ذلك على شبكات التواصل الاجتماعي أو على أرض الواقع في المساجد والزوايا الصوفية، ومؤخّرًا في المسارح والفضاءات العمومية حيث تستغلّ بعض جمعيات المجتمع المدني هذه المناسبة للقيام بتظاهرات ثقافية مثل عروض الإنشاد الروحي والرقص الصوفي أو حتى الملابس والأطعمة التقليدية. وقد تصير فرصة لإثارة حتى قضايا البيئة والتراث... ممّا يؤكّد أن المسألة أبعد من مولد النبيّ وما حصل إبّانه فعلًا، فهي تتّصل بحضور المقدّس الديني ضمن الحياة اليومية وآليات استجلاب هذا المقدّس وتوظيفه. واللّافت كما أثبتت هذه الدراسات أنّ كُلًّا من المعارضين والمتحمّسين للاحتفال يلتقون لدى نقطة واحدة: التعبير عن التعلّق بشخصية النبيّ واتّباع سنّته وإحياء ذكراه: فالمناوئون لها يتركون هذه البدعة، والمتحمّسون يُحيونها لأنها طريق لإماتة البدعة والتعبير عن المسرّة بأعظم رمز ديني. ويُنبئ هذا التغايُر عن نمطَيْن في التعامُل مع الذاكرة الدينية وممارسة الشعائر والعقائد في عالم اليوم المتحوّل، المحكوم بالاستهلاك والرغبة في الاستعراض عبر الوسائط الاجتماعية والخاضع لمبدأ الفُرجة التي باتت تُلازم كلّ تحرّكات إنسان القرن الحادي والعشرين.

من جهة ثانية، تظهر جِدّة هذا العمل في إخضاع ظاهرة الاحتفال بالمَولد بمضامينها الدينية والثقافية للمُعالجة العِلمية التي تُحلّل أبعادها الاجتماعية والنفسية والفنّية، بمعنى أنّ الدِّين خضع لدى باحثين عرب ومسلمين إلى النظر العِلمي بعد أن كان ذلك حكرًا على المستشرقين، من دون أن يعني ذلك قصور هؤلاء الباحثين في التضلّع بالمناهج النقدية ولا وقوعهم في مواقف ازدرائية من ظواهر مجتمعاتنا كما لو كانت بدعًا من المجتمعات.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

الخطاب والممارسة والتصوّرات

تَظهَر جِدّة كتاب «الاحتفال بالمَولِد النبوي: الخطابات والممارسات والتصوّرات» في إخضاعه ظاهرة الاحتفال بالمَولد بمضامينها الدينية والثقافية للمُعالَجة العِلمية، بمعنى أنّ الدِّين خضع لدى باحثين عرب ومسلمين للنظر العِلمي بعد أن كان ذلك حكراً على المستشرقين، من دون أن يعني وقوع مؤلّفيه في مواقف ازدرائية من ظواهر مجتمعاتنا.

بحثٌ جماعي عن «عيد» يُكمل، شرعيًا، الأضحى والفطر

نقاشٌ متّصل بحضور المقدّس في الحياة اليومية وتوظيفاته

أمّ وطفلتُها تتناولان الحلوى في نابلس احتفالاً بالمولد النبوي، 2023 (Getty)

نظرة أولى

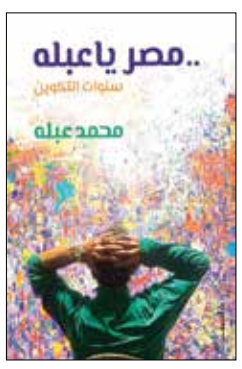

«أول هـديّة تلقّيتها في حياتي كانت علبة طباشير ملوّنة من ناظرة المدرسة الابتدائية «أبلة نجيّة»، وهي التي اعتادت من قبل أن تعاقبني على شخبطاتي التي ترى أنّني أُشوِّه بها جدران المدرسة»، بهذه الكلمات يُقدّم التشكيلي المصري محمد عبله (1953) لمذكّراته الصادرة عن دار الشروق تحت عنوان **مصر يا عبله: سنوات التكوين**. تستحوذ سنوات دراسة الفنّان في جامعة الإسكندرية، خلال سبعينيات القرن الماضي، على مساحة كبيرة من الكتاب، حيث يكشف تمكّنه مع فنّاني جيله من التفاعل مع متغيّراتها، كما يُظهر أثرها في مسيرته التشكيلية.

بعد اكتمال نشر كلّ نتاجه الشعري مترجماً إلى اللغة البوسنية في أربعة مجلّدات تضمّنت أربعاً وعشرين مجموعةً شعرية بتوقيع المترجم جمال الدين رجب ماتوفيتش، صدر عن مركز التفاهم الثقافي في مدينة الجبل الأسود مجلّدٌ خامس يضمّ الكتاب النثري «**في حضرة الغياب**» للشاعر الفلسطيني الراحل محمود درويش (1941 - 2008). وبذلك تكون البوسنية ثاني لغة في العالم - بعد العربية - تُنشر فيها كلّ أعمال صاحب ديوان «لا أُريدُ لهذه القصيدة أن تنتهي» (2009) الشعرية والنثرية. صدر العملُ بلغته الأصل عام 2006 عن دار رياض الريّس في بيروت.

أُمّ كلثوم عنوان السيرة التي يوثّق بها الباحث المصري كريم جمال (1992) حياة الفنّانة المصرية، وصدرت عن «مكتبة تنمية» مرفقةً برسومات لسحر عبدالله. من كلمة الناشر نقرأ: «في مطلع العشرينيات من القرن العشرين، وصلت إلى القاهرة فتاةٌ ريفية خجلة تُدعى أُمّ كلثوم، بعد أن طافت القرى والنجوع وغنّت وأطربت البسطاء والفلّاحين، وبعد سنوات طويلة وفي منتصف السبعينيات من ذات القرن، خرج أربعة ملايين مواطن مصري وعربي لوداعها الأخير في شوارع القاهرة. كانت حياة أُمّ كلثوم بين التاريخَين بمثابة حياة عظيمة لسيّدة مصرية وصلت إلى القمّة».

للباحثة الفرنسية أديلين بلاشكيفيتش صدر عن منشورات جامعة فرنسا (Puf)، كتاب **ألبرت توماس: تاريخ الإصلاح الاجتماعي**. يُعدّ توماس (1878 - 1932) أحد كبار سياسيّي الجمهورية الثالثة (1870 - 1940)، وعُرف بمعارضته الحركات اليسارية التي وصفته بـ«وزير القذائف»، نظراً لاستلامه وزارة الدفاع إبّان الحرب العالمية الأولى ومعارضته الثورة البلشفية. استناداً إلى أرشيفات جديدة، يتتبّع هذا العمل رحلة سلَف الديمقراطية الاجتماعية الفرنسية، ويقدّم سبراً تاريخياً للجمهورية الثالثة وعلاقتها بالحركات الأممية مطلع القرن العشرين.

عن دار الرواق، صدر كتاب **اسمُها فلسطين** للشاعرة وعالمة النفس البريطانية أغودريتش فريير (1857 - 1931) بترجمة خميلة الجندي. سجّلت فريير في الكتاب رحلة حجّها إلى فلسطين عام 1901، منذ أن حطّت الرحال بميناء يافا وصولاً إلى القدس، متوقّفةً عند اللباس والأكل، والفوارق بين الفلّاحين والبدو، وطبقات البشر في المدن الكوزموبوليتانية الفلسطينية كالقدس وبيت لحم ونابلس، ودَور الدولة العثمانية في توفير سبل الراحة والحماية للمسيحيّين، وتصاعُد نفوذ الألمان ومستعمراتهم، وسعي اليهود لتملّك الأراضي، وخصوصاً الزراعية، في فلسطين.

أدّى تنامي أعداد الجالية المسلمة في الغرب إلى نقاش متكرّر حول اندماج المسلمين في هذه المجتمعات، وانتشار المواقع الإسلامية التي يلجأ إليها آلاف المسلمين لطلب الفتوى عبر الإنترنت. هذه الظاهرة هي ما يدرسُها الباحث المصري وائل فاروق في كتابه **الفتوى في العصر الرقمي: ما الذي يبحث عنه جيل الألفية المُسلم؟** الصادر بالإنكليزية عن «بلغراف ماكملين». من خلال التحليل الإحصائي والخطابي لأكثر من عشرة آلاف سؤال فتَوي، ينظر فاروق في طبيعة هذه الأسئلة وإلى أيّ مدىً تعكس ما يفكّر به أصحابُها أفراداً وأعضاء في مجتمع ديني.

بتوقيع المُترجِم المغربي محمد آيت حنّا، صدر عن منشورات وسم كتاب **تمرينات في الأسلوب** للروائي والشاعر والمسرحي الفرنسي ريمون كونو (1903 - 1976). العمل عبارة عن تدوين لواقعة بسيطة أعاد صاحب رواية «فمٌ من حجر» (1934) كتابتها تسعاً وتسعين مرّة، في محاولة لعَصْر إمكانات الفرنسية حتى آخر قطرة، لاعباً على حبلَي الحرّية والتقييد، ومُظهراً ما في «لغة موليير» من خصوصيات أسلوبية وفرادات لغوية. عُرف كونو بعمله فترة طويلة بوظيفة قارئ في دار غاليمار، قبل أن يُصبح أمينها العام، كما انتُخب عضواً في «أكاديمية غونكور».

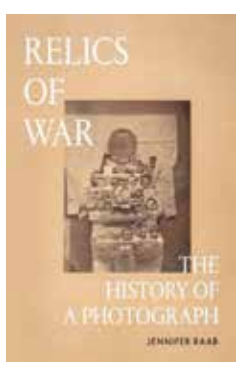

آثار الحرب: تاريخ الصورة عنوان الكتاب الذي صدر عن منشورات جامعة برنستون للباحثة في تاريخ التصوير الفوتوغرافي والكاتبة الأميركية جينيفر راب. تعود المؤلّفة إلى صُور التُّقطت بعد انتهاء الحرب الأهلية في الولايات المتحدة عام 1865، توثّق زيارة الممرّضة كلارا بارتون، التي أسّست فرع الصليب الأحمر في بلادها لاحقاً، إلى موقع معسكر الاعتقال الكونفيدرالي في أندرسونفيل بولاية جورجيا، حيث حاولت تحديد أسماء المفقودين والقتلى، وجمع متعلقاتهم، وتعتبر من أقدم الصور التي تؤرّخ جرائم الحرب والعنف والتضحية بالسُّود خلال ذلك الاقتتال الأهلي.